

استخلاف الإنسان في الأرض بوصفه مقصداً عاماً للقرآن والشريعة والحضارة

عبد السلام محمد الأحمر*

الملخص

يحاول البحث التوصل إلى اقتراح مقصد عام مؤطر لجميع المقاصد القرآنية، وقادر على تجلية نسقية الخطاب القرآني، وذلك استناداً إلى المقصد الأساس لله تعالى من خلق الإنسان حراً مسؤولاً عن نفسه ووجوده الدنيوي والأخروي. ويبيّن البحث أن هذا المقصد الأساس هو استخلاف الله الإنسان في الأرض، ثم يسعى إلى بيان مدى ملاءمة المقصد الاستخلافي لتأطير المقاصد الإلهية الشاملة، ولا سيما مقاصد القرآن والشريعة والحضارة، فضلاً عن إبراز مدى قدرة الاستخلاف على استيعاب مختلف الاتجاهات الفكرية الإنسانية، وتحفيز الإنجاز العمراني الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: المقصد العام الموحد، الاستخلاف الإيماني، الاستخلاف الوضعي، الخليفة عن الله في الأرض، العمران الإسلامي.

Vicegerency of Man on Earth as a General Intent (*Maqsid*) Prescribed in the Qur'an and *Sharia*, and Required for Civilization Abdussalam Al-Ahmar Abstract

This paper tries to identify a general intent that encompasses all the Qur'anic intents, and demonstrates a systematic discourse of the Gracious Qur'an. This attempt is based on what we think Allah's purpose of creating a free and responsible Man in his existence on earth and the hereafter.

The paper shows that this general intent is the Vicegerency of Man on earth, and that this intent is a frame of reference to all intents of the Gracious Qur'an, the Shari'a and civilization. Furthermore the paper shows that the concept of Vicegerency would highlight the extent to which it accommodates different human intellectual trends, and stimulates Islamic civilizational accomplishments.

Keywords: Unifying general intent, Faith based vicegerency of Man, Positivist-based vicegerency, *Umrān* (Islamic civilization).

* ماجستير في الفكر والحضارة من جامعة محمد الخامس في الرباط، والشهادة العليا للدراسات الإسلامية من مؤسسة دار الحديث الحسنية، ودبلوم مشرف تربوي من المركز الوطني لتكوين مفتشي التعليم. البريد الإلكتروني: elahmerab@gmail.com

مقدمة:

يهدف البحث إلى إبراز إمكانية الانطلاق في دراسة المقاصد الإسلامية، من مهمة استخلاف الإنسان في الأرض، بوصفه المقصد الأساس لله من خلق الإنسان القادر على الاختيار، والعناية بنفسه، والاضطلاع بمسؤولية وجوده الدنيوي على الأرض، ومصيره في الآخرة؛ وذلك في اتجاه بناء منظومة للمقاصد الإلهية التي تشمل دائرة الإسلام وخارجها، والتي تملك القدرة على استيعاب مختلف الاتجاهات الفكرية والحضارية الإنسانية.

ويقوم البحث على مفهوم راجح للاستخلاف، ويعتمد منهجية قائمة على التبع والاستقراء للنصوص والمقاصد الشرعية؛ لإثبات مدى استيعاب مقصد الاستخلاف لغيره من المقاصد الإسلامية القرآنية والشرعية والحضارية، وذلك ببيان ارتباط أهم المقاصد العامة في هذه المجالات بمقصد الاستخلاف.

وتبرز أهمية هذا البحث بما سيفتحه من آفاق، منها: الانتقال من الكلام عن تعدد المقاصد العامة أو الكلية للقرآن الكريم أو الشريعة أو الحضارة، كما هو معتاد فيما كُتِبَ عن هذا الموضوع إلى اليوم، إلى تحديد مقصد أساسي موحد لها، تتفرع عنه جميع تلك المقاصد العامة أو الكلية، وكذا بيان أهمية الانطلاق من الاستخلاف مقصداً أساسياً للمقاصد القرآنية والشرعية والحضارية، في تعبئة النفس بوعيٍّ ومسؤولية؛ لحسن فهم القرآن والشريعة الإسلامية، وحسن تمثل هديهما في الحياة، والمشاركة بفاعلية في تحقيق التنمية الشاملة، واستئناف الإنجاز الحضاري.

وكان الباعث على اقتحام هذا الموضوع أن غالب الاجتهادات المقدمة في بيان المقاصد القرآنية تنطوي على فوائد كبيرة وإضافات معرفية نوعية، إلا أنها تكاد تشترك جميعها في عدم تجاوز الكلام عن المقاصد المتعددة إلى استنتاج مقصد عام واحد يشملها كلها.

وأما التي تحدثت منها عن مقصد واحد عام في موضع فقد جاءت بمقصد أو اثنين عامين آخرين في موضع ثانٍ، من دون بيان العلاقة بينهما، وما إذا كان يمكن لأحدها أن يستوعب الآخرين.

ف نجد مثلاً العز بن عبد السلام يؤكد أن معظم مقاصد القرآن الكريم تدور حول الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفسد وأسبابها. وهو يقصد بالمصالح مصالح الدنيا، ومصالح الآخرة، التي هي الخلود في الجنان ورضا الرحمن، مع النظر إلى وجهه الكريم.^١

وفي هذا الكلام إقرار صريح بوجود مقاصد أخرى لا تدخل ضمن هذا الشأن باكتساب المصالح والزجر عن المفسد. ويرى ابن عبد السلام أن "أجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها والزجر عن المفسد بأسرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)". غير أن المقصد من نزول القرآن الكريم أكبر من مجرد أوامر ونواهي لتحقيق المصالح ودرء المفسد.

وفي توجه آخر نحو تلمس نظرة شاملة لمضمون القرآن الكريم، أو صياغة مقصد عام له، يقول: "وقد نظرت في القرآن فوجدته ينقسم إلى أقسام؛ أحدها: الثناء على الإله، والثاني: الأحكام، والثالث: توابع الأحكام ومؤكداًتها، وهي أنواع ذكر منها ثمانية".^٢ فهذه الأقسام الثلاثة قد تفضي إلى صياغة مقصد عام للقرآن الكريم، لكنها أيضاً تمثل الصعوبة في اعتمادها وأمثالها لبلورة مقصد عام واحد لمضمون كتاب الله، وربما كان ذلك هو ما يصرف عن التفكير في إرجاعها لمقصد واحد وموحد.

ومثلما تطرّق القرآن الكريم إلى الحديث عن الله تعالى وشرعه فقد تكلم عن عباده المُكَلَّفِينَ، الذين يملكون القدرة على الامتثال لأحكام الله ومخالفتها في الآن نفسه، وهو ما يمثل الحكمة السابقة المهيمنة على كل المقاصد.

وأما الطاهر بن عاشور فقد أولى مقاصد القرآن الجيد عناية خاصة في تفسيره "التحرير والتنوير"، فاهتم بذكر مقاصد السور؛ إذ قال: "ولم أغادر سورة إلا بيّنت ما

^١ ابن عبد السلام، عز الدين أبو محمد. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مراجعة وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤١٤هـ/١٩٩١م، ج ١، ص ٨.

^٢ المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٢.

أحيط به من أغراضها؛ لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جملة كأنها فقّر متفرقة، تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله.^٣

وقدّم ابن عاشور تصوره للمقصد العام للقرآن، فحصره في إصلاح الإنسان فرداً وجماعة؛ ليضطلع بأعباء الإصلاح العمراني الشامل، يقول في ذلك: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتاباً لصالح أمر الناس كافة؛ رحمةً لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية، والعمرانية.^٤ ثم بيّن أن تشريعات القرآن (اعتقادات، وعبادة، وأخلاقاً) هي وسائل لتحقيق الصلاح الإنساني الضروري للصلاح العمراني.

ولكن الصلاح الإنساني الذي قصده القرآن الكريم ودعا إليه لا يتحقق في الواقع إلا بإرادة الإنسان، وإدراكه أبعاد مسؤوليته عنه في حياته وبعد مماته. ولكي تكتمل صياغة هذا المقصد القرآني العام؛ فلا بُدَّ من استحضار مسؤولية الإنسان المُكَلَّف بتفعيل محتوى القرآن على مستوى النفس والواقع.

وهكذا ظل حديث علمائنا الأولين والآخرين عن مقاصد القرآن على هذا المنوال مقتصرًا على التوسع في تعدادها، وحتى لو راموا حصرها في مقاصد عامة محددة ما أبانوا إمكانية اعتمادها في صياغة منظومة مقاصدية متماسكة.

وقد حاول طه جابر العلواني حصرها في خمسة مقاصد، هي: التوحيد، والتزكية، والعمران، والأمة، والدعوة، ثم اختزلها في ثلاثة، هي: التوحيد، والتزكية، والعمران، التي أرى أنها قد تعد مقاصد فروعية كبرى لمقصد واحد، هو مقصد استخلاف الإنسان على الأرض، الذي يشملها كلها، ويؤطرها بصورة واضحة.

وأما الدراسات والأبحاث المعاصرة التي تُقدّم في ملتقيات علمية تتناول مقاصد القرآن الكريم، فإنها تختص غالباً بإبراز جوانب من مقاصد القرآن الجزئية، مثل: مقصد العدل،

^٣ ابن عاشور، محمد الطاهر. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، تونس: الدار

التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج ١، ص ٨.

^٤ المرجع السابق، ج ١، ص ٣٨.

والرحمة، والأمن... ونادراً ما تنطرق إلى المقاصد الكلية، أو تقوم بذلك من دون الإشارة إلى مقصدها الشامل المؤطر لدراساتها. وقد تتجه بعض الأبحاث إلى تأكيد أهمية الانتقال من النظر التحريضي الموقع في السطحية المعرفية إلى مكابدة النظر الكلي القادر على تسديد فهم مقاصد الوحي، وحسن تنزيل هديه في الواقع المعاصر، ومع ذلك فإنها لا تخطو خطوات حاسمة في هذا الصدد. ولذلك عندما أُعِمْ النظر في هذه الأبحاث النافعة أزداد اقتناعاً بأهمية استثمارها في بلورة مقصد عام واحد تتصل به جميع مقاصد القرآن والشرعة والحضارة.

أولاً: المفهوم الراجح للاستخلاف ومسوغات اختياره مقصداً أساسياً للمقاصد الإسلامية والإنسانية

١. المفهوم الراجح لاستخلاف الإنسان في الأرض:

أ. تفسيرات العلماء السابقين لمعنى الاستخلاف:^٥

اتجه تفسير جمهور العلماء في تحديد معنى استخلاف الإنسان إلى أن مجيئه كان بعد مَنْ عاش قبله على الأرض من الكائنات الأخرى التي أفسدت فيها، وسفكت الدماء. وقد فُسِّر أيضاً بتوالي وجود البشر على الأرض جيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم آخرين عند امتلاك أسباب السيطرة والبأس، واستعمار الأرض، والغلبة على مَنْ دونهم. وهكذا أورد المفسرون لمعنى "خليفة" معنيين:

الأول: أنه تعالى لَمَّا نفى الجن من الأرض، وأسكن فيها آدم عليه السلام، كان خليفةً لأولئك الجن الذين تقدّموه.

الثاني: إنما سمّاها الله خليفة؛ لأنه يخلف الله في الحكم بين المُكَلَّفِينَ من خلقه، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي، وهذا الرأي يستند إلى قوله تعالى عن داود

^٥ الأحمر، عبد السلام. الاستخلاف في الأرض: نحو رؤية قرآنية كلية، ضمن: أعمال الندوة الدولية: القرآن الكريم ورؤية العالم: مسارات التفكير والتدبير، سلسلة ندوات علمية (٧)، تنظيم الرابطة المحمدية للعلماء، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م، ص ٣٠٢.

العلية: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦).^٦

وقد استبعد آخرون أن يكون الإنسان خليفة لله؛ إذ الخلافة في اللغة تعني النيابة عن الآخرين، ولا بُدَّ فيها من استخلاف المُستخلف للمُستخلف، وإذنه له بها، ولا تصح في اللغة بغير هذا المعنى. وعلى هذا، فإن "الخلافة النيابة عن الغير إمَّا لغيبه المنوب عنه، وإمَّا لموته، وإمَّا لعجزه."^٧ وكل هذه المعاني مجافية لكمال الله واستغنائه عن المعين والنائب. يقول ابن تيمية: "والله لا يجوز له خليفة؛ ولهذا لما قالوا لأبي بكر: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله ﷺ حسبي ذلك."^٨ ويقول ابن قيم الجوزية: "إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه، فالصواب قول الطائفة المانعة منها، وإن أريد بالإضافة أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله، فهذا لا يمتنع فيه الإضافة، وحقيقتها خليفة الله الذي جعله الله خلفاً عن غيره."^٩ ثم يشرح معنى إضافة الخليفة إليه سبحانه، قائلاً: "فالإضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف إليه عباده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: ٤٢)."^{١٠} وفي هذا السياق يكره وصف السلطان بأنه "خليفة الله، أو نائب الله في أرضه؛ فإن الخليفة والنائب إنما يكون عن غائب، والله سبحانه وتعالى خليفة الغائب في أهله، ووكيل عبده المؤمن."^{١١}

فهذا الاتجاه في التفسير يحصر الخلافة فقط في التعاقب على الأرض، أو تولية الإمارة والرياسة على الناس، ولا يرى في الخلافة عن الله إلا مفهوم النيابة، الذي يستحيل في

^٦ الرازي، فخر الدين. مفاتيح الغيب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٣، ١٤٢٠هـ، ج ٢، ص ٣٨٩.

^٧ الكفوي، أبو البقاء. الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت، ج ١، ص ٦٧٠.

^٨ ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس. الفتاوى الكبرى، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ج ٥، ص ١٢٢.

^٩ ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ج ١، ص ١٥٢.

^{١٠} المرجع السابق، ج ١، ص ١٥٢.

^{١١} ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر. زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت-الكويت: مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، ط ٢٧، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج ٢، ص ٤٣٤.

حقه تعالى، مع احتمالها معنى النيابة في حدود ضيقة، يمنح فيها الإنسان حرية الاختيار التي يكون بها مسؤولاً عن إرادته ومعتقداته وسلوكه خلافاً لباقي المخلوقات.

والحرص على استبعاد معاني النيابة عن الله من دلالات الاستخلاف، صرفه غالباً إلى مجرد التعاقب على الأرض جيلاً بعد جيل، أو حضارة بعد أخرى؛ ما حال دون استحضار المعاني الجليلة القدر التي يشتمل عليها، والتي تبرز مكانته السامية وأساسيته في تجلية حقيقة الإنسان، ومسؤوليته الجسيمة على ظهر الأرض، ومركزه المرموق بين الكائنات، وذلك باستعراض سياقات وروده في الخطاب الشرعي، وهو ما يمكن ملاحظته في الآيات الكريمة التي تطرقت إلى موضوع الاستخلاف: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩)، ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَنَوَّحًا لَّكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (VI) (الأعراف: ٧٤). وفي الحديث الشريف: "أما بعد، فإن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون."^{١٢} فالاستخلاف -بحسب هذه النصوص- يقوم على إطلاق حرية الإنسان على الأرض ليصلح إن شاء، ويفسد إن شاء، تحت عين الله الذي يراقب عمله، ويحصى عليه، ثم يجزيه به يوم الحساب نعيماً أو جحيماً.

وبهذا الفهم، فإن الاستخلاف هو منح الله تعالى الإنسان مسؤولية الاختيار والفعل في الحياة الدنيا، ثم يتولى محاسبته على اختياراته وأفعاله في الدار الآخرة، وكأن الإنسان خلف الله تعالى في جانب ضئيل مما هو من شأنه الخاص، المتعلق بتدبير أمر الخلائق كلها، ولم يستثن من ذلك إلا الإنس والجن اللذين وكل حيزاً ضيقاً من تدبيره المطلق إليهما، وهو المتعلق بالضرورة السلوكية للذات الإنسانية وعملها العمراني، بحيث تصنع مصيرها بنفسها على الأرض، وفي العالم الآخر.

وهكذا تأخذ خلافة الإنسان عن الله بُعداً أخطر وأشرف في ذات الوقت، "بمعنى أن الله تعالى قد أعطاه من قوة العقل والتفكير والتدبير، والسيطرة على نفسه، وعلى ما في

^{١٢} ابن حنبل، أحمد. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، د.م: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج ١٧، ص ٢٢٧، وضعفه الألباني.

الوجود، وفي الأرض التي خلفه الله تعالى عليها ليكون خليفة خلافة نسيية عن الله تعالى.^{١٣}

فهذا استخلاف بالمعنى العام يؤكد أن الآدميين مُفَضَّلون عمَّا سواهم من المخلوقات الأخرى؛ بالنيابة عن الله في بعض اختصاصه وشأنه العظيم، الذي ليس لأحد من خلقه أن يخالف فيه إرادة الخالق في قليل أو كثير، ولا يسعه إلا الطاعة الكاملة، والإقرار بفضله على الخلائق، وتدييره لما دق وجل من أمرها، فهو سبحانه يوجدنا من العدم على النحو الذي تقتضيه حكمته، ويحدد لها مهمتها في الوجود بمحض إرادته من دون شريك أو معين، ولا تملك حق الاعتراض عليه أبدًا.

ولكن الله تعالى شاء أن يخلق الإنسان، ويعرض عليه أمانة تقرير مصيره وتشكيله بإرادته الحرة في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، بحيث يكون في وسعه أن يعترف بالوهمية الله أو يرفضها، وأن يطيعه أو يعصيه، وأن يُعَبِّرَ عن موقفه الخاص في كل ما يتعلق بحياته الشخصية أو الاجتماعية، وأن يتحمل مسؤولياته كاملة عمَّا يفعل أو يترك، وعمَّا يجب أو يكره، وأن يسعد ويهنا بحسن فهمه وسديد رأيه، ويجني ثماره في العاجل والآجل، أو يشقى ويخزي إذا أساء التقدير، فخالف قانون الخالق وتدييره وحكمته من خلقه.

ب. الاستخلاف بمعنى تحمل مسؤولية الحكم والقيادة:

بعد الحديث عن الاستخلاف العام، ودلالته على حرية الإنسان المقيدة بمسؤوليته عن مختلف أعماله فوق الأرض، ومحاسبته عليها بين يدي الله في الدار الآخرة، نتحدث عن الاستخلاف بمعنى تولي المسؤولية العامة على الناس؛ سواء أكان ذلك من شخص على قومه، أم من أمة على غيرها من الأمم والشعوب.

فالفرد الذي يستخلفه قومه عليهم يتحمل مسؤولية عظيمة، تتعلق بتدبير شؤونهم العامة، ففصلح أمور الناس بصلاحه وإقامته العدل، وقيامه بالمهام الموكولة إليه بأمانة وإخلاص وكفاءة، أو يفسد نظام المجتمع بفساده وانحرافه وضعف كفاءته، وتسوء أحواله، وتفشو فيه المظالم والقتال.

^{١٣} أبو زهرة، محمد. زهرة التفاسير، د.م: دار الفكر العربي، د.ت، ج ١، ص ١٩٤.

قال تعالى مخاطباً داوود عليه السلام: ﴿يَدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٢٦). فداوود هو خليفة عن الله من حيث هو إنسان تجمع فيه صفة الاستخلاف الأصلية مع كل الناس، ولكنه ينماز عنهم بأنه خليفة بتكليف من الله على قومه، يحكم بينهم بالحق والعدل تطبيقاً لشرع الله، في إطار ما آتاه الله من النبوة والملك. فكل إنسان خليفة عن الله في حكم نفسه بنفسه، وقد يضيف الله إليه -فضلاً عن تدبير أمر نفسه- تدبير أمر غيره؛ من: زوجة، وأولاد، وأناس آخرين في مهنته الخاصة، أو من خلال توليه مهام إدارية عامة؛ مديراً، أو حاكماً، أو أميراً.

وقد يستخلف الله قوماً على غيرهم؛ استحقاقاً لهم على قدر التزامهم بالاستقامة على شرع الله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أُسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥)؛ فقد وعد سبحانه أن يمنح المؤمنين أسباب النصر والغلبة، وأن ينالوا صفة التمكين لدينهم والأمن والاستقرار في أوطانهم، فإذا تراجعوا عن التمسك بهدي الدين، وتساهلوا في العمل به، دبَّ إليهم الوهن والفساد، وخسروا العزة في دنياهم والفوز في أخراهم.

والاستخلاف تكليف واختبار للفئة المؤمنة، التي إذا تهيأت لها ظروف الريادة والقيادة لغيرها من الأمم الأخرى، وحكمت شرع الله، وأصلحت دنيا الناس بمنهج الله القويم، دام لها المجد والسؤدد، وإذا تقاعست عن ذلك، وأخلَّت بشروط الاستخلاف الإسلامي، انتكست وخابت، وصارت محكومة بغيرها بعد ما كانت حاكمة لغيرها. وهذا من سنن الله الجارية التي لا تتخلف في الزمان والمكان، والتي يمكن ملاحظتها في كل النصوص الشرعية التي تطرقت إلى موضوع الاستخلاف، مثل قول هود لقومه عاد: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ الْآلَاءَ لَعَلَّكُمْ تَفْقَهُونَ﴾ (الأعراف: ٦٩). فما من أحد يجحد عن أداء أمانة الاستخلاف العام في الأرض إلا استبدل الله به غيره، ممن تقول إليه الهيمنة على شؤونه العامة والخاصة.

ت. الاستخلاف بمعنى النيابة بين الناس في تأمين مصالحهم الفردية

والجماعية:

إن الخلافة بمعنى النيابة في إطار حرية الإنسان ومسؤوليته، تتسع أيضاً لخلافة بني الإنسان بعضهم عن بعض؛ فرد عن جماعة، وجماعة عن فرد، وأفراد عن أمة، وجيل عن جيل، وخلف عن سلف. فالحاكم يخلف الشعب في تدبير شؤونه العامة. وكل فرد يمارس الخلافة من خلال مهنته أو وظيفته المعلومة في المجتمع؛ لتأمين خدمة معينة لمصلحة غيره من الناس، نيابةً عنهم؛ وذلك لاستحالة توفير الفرد حاجاته كلها وحده؛ إذ تتكامل جهود البشر على ظهر الأرض، بدءاً بالقرية والمدينة - في إطار الدولة - وانتهاءً بالعالم أجمع.

وأما العلماء ورجال الفكر والتربية والتوجيه فيخلفون الأمة في رعاية دينها، وحمايتها من تسرب الانحراف إليه؛ سواء على مستوى الفهم أو السلوك. ويشهد لهذا النوع من الاستخلاف نصوص شرعية منها: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا إِعْشِرَةً فَنَظِرَ مِمَّا قَدْ رَبَّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (الأعراف: ١٤٢)، وفي الحديث الشريف: "مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَخِيرَ فَقَدْ غَزَا".^{١٤}

والاستخلاف بهذا المعنى - كغيره من أنواع الاستخلاف الأخرى - يتوقف على كيفية ممارسة كل فرد للأمانة، التي هي أساس الاستخلاف في الأرض، ومدى تمثل قيمها المختلفة، مثل: الصدق، والنزاهة، والمسؤولية، والإتقان... إذ يتأرجح حال الإنسان بين الصلاح والفساد تبعاً لتحلّي النفس بالأمانة، أو تخلّيها عنها، واتباع أهواء النفس وشهواتها.

^{١٤} البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ، ج ٤، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا أو خلفه بخير، حديث رقم ٢٨٤٣، ص ٢٧.

٢. مسوغات اعتبار الاستخلاف مقصداً عاماً للمقاصد الإسلامية:

أ. أسبقية مقصد الاستخلاف على غيره من المقاصد:

بيّن الله تعالى مقصده من خلق الإنسان حين أخبر الملائكة أنه سيستخلفه في الأرض، وقد تعرّف الملائكة طبيعة هذا الإنسان التي اختص بها من دون باقي الخلائق، وأنه سيكون من أفعاله الإفساد في الأرض، وسفك الدماء، التي هي نتيجة ما يتصف به من الحرية والمسؤولية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠). وهاتان الصفتان (الحرية، والمسؤولية) هما ما يتمكن بهما الإنسان من حمل الأمانة التي استنقلتها السماوات والأرض والجبال ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب: ٧٢)، ومن ثم فإن مقصد استخلاف الإنسان في الأرض هو أساس كل مقصد يأتي بعده، فلا يمكنه أن يخرج عن إطاره، أو يختلف عنه في قليل أو كثير، لكنه سيكون -بالضرورة- بياناً وتفصيلاً لما يختزله مفهوم "الاستخلاف" من معانٍ ومسؤوليات وغايات مُبَيَّنَّة وشارحة لحقائقه ووكلياته وجزئياته. بل إن حقيقة مقصد الاستخلاف هي تحميل الإنسان أمانة الاختيار في الحياة الدنيا، بين الإحسان والإساءة فطرةً وعقلاً، عند عدم بلوغ الوحي إليه، وبين الإيمان والكفر عند وجوده، وبعد مرحلة الدنيا التي تليها محاسبة الله على الاختيارات، وتحمل تبعاتها في الآخرة.

ب. ارتباط الاستخلاف بمسؤولية الإنسان:

لقد أحيط حدث استخلاف الإنسان بما ينبئ عن عظم شأنه، وخطر أمره، وأنه حدث جلل، يدل على ذلك إخبار الله الملائكة به، وتساؤلهم الذي ينطوي على استغرابهم الواضح تجاهه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠).

فقد علمت الملائكة من خصائص هذا الكائن المُستخلف أنه -خلافاً لما هم عليه من الطاعة الخالصة لله تعالى- يملك جرأة فائقة على معصية الله تعالى عن طريق الإفساد في الأرض وسفك الدماء. "ولا شك أن تساؤلهم نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة، وما يقتضيه من العلم غير المحدود والإرادة المطلقة، وكون هذا العلم المصروف للإرادة لا يحصل إلا بالتدريج، وكون عدم الإحاطة مدعاة للفساد والتنازع المفضي إلى سفك الدماء كما تقدّم."^{١٥}

وقد توالى الآيات القرآنية التي تصف الملائكة بالانقياد التام لأمر الله الذي لا يشوبه زيغ أو فتور، كما هو شأن باقي المخلوقات في الكون، غير الجن والإنس، منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ (النحل: ٤٩-٥٠).

فعندما "أخبر الله الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة، فهموا من ذلك أن الله يودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة، أن يكون ذا إرادة مطلقة واختيار في عمله غير محدود، وأن الترجيح بين ما يتعارض من الأعمال التي تَعْنُ له تكون بحسب علمه، وأن العلم إذا لم يكن محيطاً بوجوه المصالح والمنافع فقد يُوجَّه الإرادة إلى خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد... فعجبوا كيف يخلق الله هذا النوع من الخلق، وسألوا الله تعالى معرفة البيان والحكمة."^{١٦}

فالاستخلاف عن الله يرتبط أساساً بتمكين الله الإنسان من حرية التصرف في نفسه وفي الأرض، وفعل ما أمره به من واجبات وصالحات، وما نهاه عنه من محرمات ومفاسد، وذلك في دائرة ما منح من قدرات وطاقات محدودة، ثم المشول بعد ذلك بين يدي الله المُستخلف له؛ لكي يحاسبه على الطريقة التي مارس بها مهام الاستخلاف؛ إحساناً، وإصلاحاً، أو إساءةً، وإفساداً.

^{١٥} رضا، محمد رشيد. تفسير المنار، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٢١٧.

^{١٦} المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٣.

ثانياً: بيان كون الاستخلاف مقصداً عاماً للقرآن والشرعة والحضارة

١. الاستخلاف بوصفه مقصداً عاماً للقرآن الكريم:

يمكن القول إن أساس استخلاف الإنسان في الأرض هو ما زوّده الله به من فطرة وعقل، يهتدي بهما -على وجه العموم- إلى التمييز بين المنافع والمضار، وبناء منظومة فكرية تُحدّد تصوره لنفسه وللحياة من حوله، فإذا بلغه الوحي اعتمدت نفسه على الفطرة والعقل، فسَلّمت بأنه الحق والرشاد، واحتكمت إلى توجيهاته وبيّناته، واهتدت بها في دروب الحياة، أو مالت إلى تكذيب بيّناته، وحادت عن هديه ونهجه ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).

يقول عباس محمود العقاد: "الإنسان في عقيدة القرآن هو الخليفة المسؤول بين جميع ما خلق الله، يدين بعقله فيما رأي وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، فلا تدركه الأبصار والأسماع."^{١٧} فالوحي المنزل أساس لَمَن بلغه، فأمن به وصدق؛ لممارسة الاستخلاف في اتجاه الإيمان بالله وتحكيم شرعه، فيما جل ودق من سعي المؤمن على ظهر الأرض، الذي يوصله إلى سعادة الدنيا والآخرة. وبالمقابل، فإن الكفر بالوحي، وتنكّب سبيله، واجتناب هديه، يمثل ممارسة أخرى للاستخلاف تفضي إلى شقاء الدنيا والآخرة.

فالاستخلاف الإنساني لا يخرج عن أحد مسارين: مسار يتوجه فيه الآدمي في حياته بهدي الوحي المنزل من الله، المبلغ على يد رسله الأخيار، وهو -في هذه الحالة- يناسب أن نسميه استخلاقاً إيمانياً. ومسار يقوم على أساس عقلي محض، وهو ما يناسب تسميته بالاستخلاف الوضعي.

ولهذا، لما أنزل الله تعالى آدم وحواء إلى الأرض خاطبهما مُحدّداً مهمتهما في الاختيار بين أحد طريقتين؛ إمّا اتباع دين الله وهديه المبين، وإمّا الإعراض عنه والاكتفاء بالعقل وحده ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

^{١٧} العقاد، عباس محمود. الإنسان في القرآن، مصر: نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م، ص ٧.

يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ (البقرة: ٣٨-٣٩). فكل المقاصد القرآنية تندرج بداهةً في إطار توضيح مقصد الاستخلاف الإيماني، وتفعيله، وتحديد مسؤولياته وتكاليفه العملية التي تمتد لتعم قضايا الحياة ومناشطها جميعاً.

ومن هذا المنطلق، يمكن تحديد علاقة كل مقصد قرآني بمقصد الاستخلاف، وفهمه في إطار مدلوله الذي يركز على مسؤولية المُكَلَّف الثابتة عن إرادته وتصوراتهِ وأفعاله؛ امتثالاً لبيانات الوحي وتحديداته. فالإيمان الذي هو الخطوة الأولى على نهج دين الله، والتعريف به وبيانهِ يعد من أول المقاصد القرآنية الكبرى، ويمثل المدخل الرئيس إلى الاستخلاف الإيماني؛ إذ يخرج به المرء من الجهل بالله إلى معرفته سبحانه، وإدراك صفاته وكمالاته وعلاقته بالمخلوقين، وتعرُّف مراده منهم، وحكمته من خلقهم وخلق الوجود من حولهم، وأنه تعالى خلق الدنيا وجعلها دار العمل والاختبار لبني آدم، وخلق الآخرة وجعلها دار الجزاء بالنعيم الأبدي، والعقاب بنار الجحيم.

والإيمان من حيث هو تصديق بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بتكاليف الشرع، يعد ممارسة للاستخلاف على مستوى النفس، التي استخلف الله الإنسان عليها، يركبها ويوجهها لما يصلح لها ويسعدها دنياً وأخرى، أو يفسدها بالكفر والشرك، ويدنسها بالمعاصي والآثام ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس: ٧-١٠).

فالله خلق النفس وجعلها قابلة للهداية والضلال، والطاعة والمعصية، والاستقامة والانحراف، والإيمان والكفر، وجعل مهمة الإنسان في هذه الحياة منحصرة في توجيهها نحو أحد الاتجاهين: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان: ٣). وقد فطر الله سبحانه ابن آدم على اختيار أحد المسلكين (الإيمان، أو الكفر) من تلقاء نفسه، وبقراره الخاص، بما يعني أن الإيمان فعل إنساني خالص، منح الله الإنسان حرية القيام به، فيُصدِّق خبر وحيه إن شاء، أو يُكذِّبه إن شاء، وهنا تتجلى مسؤولية الإنسان في أكمل صورها، ويتضح معنى الاستخلاف وتمام حقيقته.

فإذا حسم اختيار الإيمان في قرارة نفسه، وأكد عزمه عليه، وباشَرَ مقتضياته العملية، وواظب عليها، ولم يتقاعس أو يتوانى، فإن الله حينئذٍ يُجَبِّب إليه الإيمان، ويُزَيِّنه في قلبه،

وَيُكْرَهُ لَهُ الْكُفْرُ وَالْعَصْيَانُ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ اللَّهُ حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴿٨﴾ فَضَلَّاهُمْ اللَّهُ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩﴾ (الحجرات: ٧-٨). وكلما نوى الاستزادة من الإيمان والعمل الصالح أعانته الله، ووفقته على قدر صدقه وحرصه، في ابتغاء درجات أعلى من الطاعة والانقياد لشرع الله ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَرَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ ﴿١٧﴾ (محمد: ١٧).

وبالمقابل، فإذا تلقى الإنسان الوحي بالرفض والاعتراض على مضمونه، وأصر على الكفر به وجحود حقائقه، فإن الله - بعد ذلك - يُزَيِّنُ له موقفه، ويُيسِّرُ له الاستمرار عليه، ويسوق له أيضاً ما قد يجعله يراجع نفسه، ويصحح اختياره، فإذا أبى إلا الغي والعناد، وصم آذانه عن سماع الحق والخضوع له، فإن الله تعالى - آجلاً، أو عاجلاً - يطمس على قلبه، ويمنعه الاستبصار والإنابة للرشد ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ (الأنعام: ١٢٥).

وهكذا نخلص إلى أن الإيمان هو ممارسة استخلافية تأسيسية لكثير من التصورات الفكرية وأفعال القلب والجوارح، التي دعا إليها القرآن الكريم، وصارت من مقاصده المعلومة، مثل: توحيد الله، والخوف منه، ورجاؤه، وذكره، والتوبة إليه، ودعاؤه، والتقوى، والإنفاق، وكل العبادات المفروضة، مثل: الصلاة، والصوم، والحج... وكل التكاليف القرآنية الأخرى، مثل: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتزام العدل، والتحلي بالأخلاق الحميدة، والتفكير في آيات الأنفس والآفاق، وتوحي المؤمنين، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وتدبر القرآن.

وكل هذه المقاصد وأمثالها تعد امتداداً لمقصد الاستخلاف، وتطبيقاً سلوكياً له؛ فمن خلالها، وعن طريق الامتثال لها وتمثلها في الفكر والسلوك، يترسّخ مقصد أساسي واحد، هو المسؤولية الاستخلافية التي تتخذ صوراً عدّة؛ سواء كانت معتقدات قلبية، أو التزامات سلوكية، أو مزيجاً بينهما.

٢. الاستخلاف بوصفه مقصداً عاماً للشرعية الإسلامية:

إن استخلاف الله الإنسان على مدى وجوده الأرضي يعد أيضاً استخلافاً على شريعته، بحيث يؤمن بها، ويتفقه فيها، ويُطبّق أحكامها في مجالات حياته المختلفة. وفي هذا النسق، فإن جميع مقاصد الشريعة العامة والجزئية لا يمكن إلا أن تكون موصولةً بمقصد الاستخلاف، ومثلاً له في واقع التدين؛ اعتقاداً، وعبادةً، ومعاملاتٍ.

وتمثّل علاقة المقاصد العامة للشرعية الإسلامية بمقصد الاستخلاف، فنسوق ما ذكره أبو إسحاق الشاطبي في بيان قصد الشارع في دخول المُكلّف تحت أحكام الشريعة؛ إذ قال: "المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المُكلّف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً."^{١٨}

فاتباع أوامر الشريعة واجتناب نواهيها يقوي الإرادة في الاستقامة على الدين، ويحد من تأثير الأهواء وضغط الشهوات، ويصحح وجهة الاستخلاف الإيماني، ويحول دون الزيف عنه، وذلك ما لا يتحقق إلا باستشعار الذات لمراقبة الله في السر والعلن، والاحتكام في كل الشؤون الفردية والجماعية إلى توجيهات الشريعة، والتزام الحذر الشديد من اتباع الهوى الذي يبتعد بالنفس عن هدى الله والحق المبين.

وما من مقصد من مقاصد الشريعة إلا ويرتبط بتحقيق مقصد أسبق عليه وأوسع منه، وهو مقصد الله من خلق الإنسان؛ ليستخلفه في الأرض، ويُحمّله مسؤولية العمل بالشرعية فهماً وتطبيقاً، فيثبته على ما أحسن من عمل، وأخلص فيه القصد لله تعالى، ويؤاخذه على ما قصر فيه، وتراخى عنه. فكل مقصد عام للشرعية يقتضي إرجاعه إلى المقصد الإلهي الأصلي من استخلاف الإنسان في الأرض، وتكليفه بتحديد موقفه النظري والسلوكي من الوحي والشرعية المنزلة.

ونورد مثلاً آخر لمزيد من التوضيح؛ إذ قال العز بن عبد السلام: "ما أمر الله بشيء إلا وفيه مصلحة عاجلة أو آجلة أو كلاهما، وما نهى عن شيء إلا وفيه مفسدة عاجلة

^{١٨} الشاطبي، أبو إسحاق. **الموافقات**، تحقيق: أبو عبيدة آل سلمان، القاهرة: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٢، ص٢٨٩-٢٩٠.

أو آجلة أو كلاهما.^{١٩} وهذا يدل على أن من مقاصد الشريعة العامة تحقيق المصالح وتكثيرها، ودفع المفاسد وتقليلها.

ولكن يلزم وضع هذا المقصد في إطار المقصد الإلهي الأسمى من خلق الإنسان والحياة الأرضية، وهو تحميل الإنسان أمانة الاستخلاف في الأرض؛ إذ إن جلب المصلحة ودفع المفسدة يعد تكليفاً مقصوداً لله من خلق الإنسان، وإنزال الشرائع. صحيح أن الله تعالى لا يعجزه تحقيق جميع المصالح الإنسانية، وإعدام المفاسد كلها، بيد أن حكمته ومشيئته اقتضت أن يَكِلَ أمر ذلك إلى الإنسان، ويُحْمَلْ مسؤولية العمل من أجله، فيرضى عنه ويكرمه إن استفرغ جهده وكابد مشقة القيام به، ويغضب منه ويعذبه إن تقاعس عن ذلك ولم يُقَدِّرْ المسؤولية التي حَمَلَهُ الله إياها. فالله تعالى لن يحاسب الناس عن سبب عدم تحقيقهم كل المصالح، ودفع كل المفاسد، وإنما سيحاسبهم عن سبب عدم استشعار ثقل أمانة التكليف الإلهي لهم بذلك، وعن سبب عدم الاجتهاد -قدر المستطاع- من دون تراخٍ أو تقصير لفعل ما أمروا به، وترك ما نُهوا عنه.

وسعيّاً لتأطير مقاصد الشريعة بالمقصد الأساس الذي هو الاستخلاف، يمكننا استحضار بُعْدِ التكليف والابتلاء عند صياغة أي مقصد، على نحو المثالين الآتين:

- المقصد العام للشرعة الإسلامية هو تكليف الإنسان بجلب المصالح، ودفع المفاسد.

- المقصد الشرعي من وضع الشريعة هو تكليف الإنسان بإخراج نفسه عن داعية هواه؛ ليكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً.

٣. الاستخلاف بوصفه مقصداً عاماً للعمران الإنساني والإسلامي:

أ. الاستخلاف مقصد عام للعمران الإنساني:

لقد ربط الله مهمة استخلاف الإنسان بمجال الأرض التي سيعيش على ظهرها، ويقتات من ثمارها ومنتوجاتها، ويستفيد من عطاءات أنهارها وبحارها وسهولها وجبالها؛

^{١٩} ابن عبد السلام، عز الدين أبو محمد. الفوائد في اختصار المقاصد، تحقيق: إياد خالد الطباع، دمشق: دار الفكر، ١٤١٦هـ، ص ١٤٣.

ليتمكن من ممارسة أمانة الاستخلاف عليها، التي تضم على رأس مسؤولياتها الأساسية التفكير في آيات الله المبثوثة في الأنفس والآفاق، والتعريف من خلالها -متضافرة مع آيات الوحي إذا بلغت- إلى الله، وطريقة عبادته مثلما شرع، فضلاً عن تحمّل مسؤولية حسن استغلال ما يتوافر على سطح الأرض وباطنها من ثروات ومعادن؛ قياماً بواجب الحفاظ على حياته، وتأمين مختلف حاجاته؛ من: الغذاء، والسكن، واللباس، وطلب العلم النافع، والتماس العلاج الطبي، وضمان ترقية وجوده بتطوير العلوم الزراعية والصناعية.

فهذه المهمة العمرانية يضطلع بها الجنس البشري، في إطار استخلاف الله إياه على الأرض، الذي قد يمارسه اعتماداً على مجرد عقله، والتجارب المتوارثة عبر تاريخ الإنسانية، ونتائجها المتراكمة في مختلف مجالات الحياة، أو استناداً إلى الفهم السائد لتعاليم الوحي وفقه مقاصده، فيكون سعيه فيها صلاحاً ورخاءً وأمناً، أو فساداً وشقاءً واضطراباً، فيجني ثمار نهجه العاجلة فوق الأرض، ويتعرض لحساب الله الآجل في الدار الآخرة.

وتأسيساً على ذلك، فإن عمارة الأرض تغدو وحدها المقصد المهيمن في إطار الاستخلاف الوضعي القائم على أساس المناهج الفكرية البشرية، المنكرة لوجود الله ولشرعه وحسابه لخلقهم من الآدميين، أو المستند إلى تعاليم الأديان السماوية المخرفة، وكذا الأديان الأرضية المجافية لمضمون الوحي الصحيح.

وقد عرفت البشرية -على امتداد وجودها إلى اليوم- ميلاً شديداً لاتخاذ منظومات اعتقادية وفلسفية، تحصر همها ومنتهى سعيها في دائرة الحياة الدنيا، وتقصي الإيمان بالغيب والبعث بعد الموت، والخضوع للحساب ثم الجزاء والعقاب ﴿يَعْمَلُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ (٧) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَفُرُونَ﴾ (٨) (الروم: ٧-٨)؛ فقلوه تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} "يعني علمهم منحصر في الدنيا، وأيضاً لا يعلمون الدنيا كما هي، وإنما يعلمون ظاهرها وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها."^{٢٠}

^{٢٠} الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٢٥، ص ٨١.

وهؤلاء هم أصحاب الدنيا الذين آثروا القيام بمهام الاستخلاف؛ بحبس همهم، وحصر تطلعات نفوسهم داخل الواقع الأرضي المحدود باللحد في القبور، فتحملوا مسؤولية فهمهم الخطأ، فخابوا في الدنيا، وخسروا في الآخرة.

وخلاصة القول إن الفعل البشري العمراني - في أي اتجاه جرى زماناً ومكاناً - يمثل المقصد العام لله من استخلاف الإنسان في الأرض.

ب. الاستخلاف مقصد عام للعمران الإسلامي:

إذا كانت الإنسانية تمارس مهام العمران في الأرض، في ظل مناهج فكرية وضعية، أو انطلاقاً من بقايا ديانات سماوية أو أرضية؛ فإن المسلمين ينهضون بأعباء العمران بتوجيه من تعاليم الوحي الخاتم، الذي يلزم أتباعه بإعمار الدنيا بالدين، وإقامة الدين في الدنيا التي جعلها الله تعالى مزرعة للآخرة، ولا مهرب من العبور منها إلى الدار الآخرة. فالدنيا والآخرة يلتحمان في منظور الإسلام، ويمتزجان في سلوك المسلم ويتكاملان حتى يتمكن من القيام بأعباء الخلافة على الأرض وفقاً للوجه الإيماني الصحيح.

وقد رسم القرآن الكريم المنهج الإسلامي لابتغاء الحياة الآخرة الباقية بالعمل في الحياة الأولى الفانية ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ٧٧﴾ (القصص: ٧٧). فالمسلك الأصوب هو أن يكون قصد المؤمن بكل ما أوتي من مال وصحة وجاهٍ وعلم وخبرة، وبكل ما يبني ويشيد، وما يبيع وما يشتري، وما يبرم من عقود ويعطي من عهود، هو نيل رضى الله، والفوز بنعيم الدار الآخرة الدائمة، والاحتراز من التوسل إلى شيء من مكاسب الدنيا بما يفسدها ولا يحل في شرع الله.

فالدنيا دار ابتلاء وامتحان، والآخرة دار ثواب وجزاء، وهي وكل ما يشغل المُكَلَّف في أرجائها فتنة شديدة، قد لا يفلح في مواجهتها إلا بمجاهدة ومعاناة مستمرة، وما ينجم عنهما من توفيق الله وتنبيته ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٢﴾ (الملك: ٢)، ومن ذلك "أن موقع الدنيا من حيث الترتيب الزمني بالنسبة

للآخرة يعد من أقوى عوامل الابتلاء. فالنفس البشرية تؤثر العاجل على الآجل، وتسرع في الأمر كله، وهو ما يقوي افتتاحها بالدنيا وانشغالها بها دون الآخرة المتأخرة زمناً. ثم إن الدنيا - معيشة ومشاهدة - تملك على الإنسان السمع والبصر والفؤاد، يلتذ بأطاييبها، ويتنفس هواءها، ويرى سريعاً نتائج سعيه فيها، ويكابد محنها، ويحس ضغوطها عليه، ويعاني من حاجاتها وضرورتها الملحة والمتكررة. لهذه الأسباب يجد الإنسان نفسه منغمساً في طلب الدنيا، متورطاً في حُبها بدافع غريزة حُب البقاء، وبحكم الاندماج التام بين الحياة ذاتها، وطبيعتها الدنيوية.^{٢١}

والمسلم يؤمن بأن خلافته النسبية عن الله - كما سلف - لا تجعل مهامه العمرانية تفاعلاً بينه وبين الطبيعة ومكوناتها فحسب، بل تفاعل بين جهده المحدود وشرع الله وقدرته وإرادته. فالمساحة التي استخلف الله فيها الإنسان لا تخرج عن دائرة القصد والنية، وما يفعله بعد ذلك فهو بإقدار الله له وتيسيره عليه. يقول الفضيل بن عياض: "إنما يريد الله ﷻ منك نيتك وإرادتك".^{٢٢}

وقد ذهب علال الفاسي إلى اعتبار عمارة الأرض مقصداً عاماً للشرعية الإسلامية، فقال: "والمقصد العام للشرعية الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كُلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع".^{٢٣} فربط عمارة الأرض بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بمختلف التكاليف الإسلامية في مجالاتها المادية والروحية، جاعلاً المهام العمرانية كلها ضمن المقصد الاستخلافي الذي تحدد قبل خلق آدم وحواء، وترسخ بالممارسة الفعلية خلال الإنجازات العمرانية المتميزة للحضارة الإسلامية.

^{٢١} الأحمر، عبد السلام. المسؤولية أساس التربية الإسلامية، الرباط: مطبعة طوب بريس، ط ١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٣٣-٣٤.

^{٢٢} الحنبلي، ابن رجب. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٧، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج ١، ص ٧١.

^{٢٣} الفاسي، علال. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، المنصورة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٤م، ص ٥٨-٥٩.

ولا شك في أنه من الخطأ المنهجي البين أن نتحدث عن الإنجاز العمراني الإسلامي بمنأى عن بيان مدى ارتباطه وتوجُّهه بمقصد الاستخلاف، وانضباطه بقيمه السامية.

ثالثاً: الاستخلاف بوصفه حافظاً أساسياً للنفس في بناء الحضارة

١. الاستخلاف حافظ أساسي لبناء الحضارة وراقيها:

تمثل الحضارة خلاصة الممارسات الاستخلافية للكيانات البشرية المتعاقبة على وجه الأرض، بصرف النظر عن الزمان والمكان؛ فهي حصيلة تضافر الجهود الجماعية لأمة ما، انطلاقاً من رؤية خاصة تمثل تصوراً معيناً للوجود والإنسان ودوره فيه، وتكون مستمدة من وحي إلهي، أو اجتهد بشري. يقول ابن عاشور: "فالخليفة آدم وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي، وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي".^{٢٤}

ويدور مضمون الرؤية الحضارية حول مبدأ مركزي تشريه النفوس بالتربية والتنشئة الاجتماعية، ويمثل محركاً ثابتاً لها في اتجاه عمارة الأرض، ويسمى هذا المبدأ المحرك أيضاً روح الحضارة.

وكان غوستاف لوبون (١٨٤١م-١٩٣١م) أحد الذين أكدوا دور المعتقدات الدينية في نشأة الأمم والحضارات؛ إذ قال: "وتكوّن من المعتقدات الدينية في كل وقت أهمّ عنصر في حياة الأمم، ومن ثم في تاريخها، وكان ظهور الآلهة وموتها أعظم الحوادث التاريخية، وتولد مع كل مبدأ ديني جديد حضارة جديدة، وما انفكت المسائل الدينية تكون من المسائل الأساسية في قدس الأجيال وحديثها".^{٢٥} وأمّا الحضارات التي لم تُبنَ على الدين فقد بُنيت على موقف معين منه، مثل: العلمانية التي ترى فصل الدين عن الدنيا، والشيوعية التي تعد الدين أفيوناً للشعوب.

^{٢٤} ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٩.

^{٢٥} لوبون، غوستاف. السنن النفسية لتطور الأمم، ترجمة: عادل زعيتر، مصر: دار المعارف، ١٩٥٠م، ص ١٥٧.

وفي هذا السياق، تقوم الحضارة الإسلامية على أساس الشريعة الإسلامية، وما تشتمل عليه من إيمان بالله وتوحيده؛ تنفيذاً لاستخلاف الله الإنسان على الأرض، بعد تسويته، والنفخ فيه من روحه، وتمكينه من اكتساب المعارف والخبرات؛ ما جعله أهلاً لتحمل أمانة الخلافة عن الله، بالاستقامة على الدين في نفسه ومجتمعه، والقيام بمسؤوليات عمارة الأرض، وإنشاء حضارة إيمانية رشيدة. وهذا يتطلب اكتساب وعي حضاري، هو "إدراك الفرد ومؤسسات المجتمع المختلفة لمسؤولياتهم الكبرى في بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة، والسعي في دفع عملية النهضة والتقدم المعنوي والمادي من خلال إصلاح الفكر والسلوك والواقع".^{٢٦}

فالاستخلاف الإيماني يمثل حافزاً قوياً للإنسان إلى إعمار الأرض، بتنمية الخير والصالح والهداية بين الناس، وتقليل الشر والحد من أسباب الفساد، وذلك عند تحرّكه إلى العمل، باستشعار عظم الأمانة التي طوّق بها الله أعناق الآدميين، وربط صلاح الإنسان وفلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة بإدراك ثقلها وأساسيتها ومختلف أبعادها في الوجود الإنساني. فكل مقصد يُرى بأنه يُحقّق غايات إنسانية دنيوية وأخروية، تزيد فاعليته عند ربطه بمقصد المسؤولية الاستخلافية التي تمثل مقصد الله من خلق الجنس البشري، وبسط سلطانه على الأرض، مُسخّراً مُقدّراتها في الخير كما في الشر، ومُصلِحاً فيها أو مُفسِداً.

وهذه المسؤولية الاستخلافية تلتزم نهج الإيمان بالله وعبادته لدى المسلمين وغيرهم من أتباع الرسل عليهم السلام، والعمل على استحقاق رضا الله، والفوز بالاطمئنان النفسي في الدنيا، وبالمقام في جنات الخلد بعد النشر والحساب، وتتخذ نهجاً مختلفة عند غير المؤمنين بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

فالإيمان بالله يتحقق نتيجة الإحساس العميق بالمسؤولية تجاه الله الخالق الرازق المحيي المميت، الذي لا تعد أفضاله ونعمه على الإنسان؛ ما يُحتم عليه بذل ما يستطيع من

^{٢٦} القحطاني، مسفر بن علي. الوعي الحضاري: مقاربات مقاصدية لفقه العمران الإسلامي، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط ١، ٢٠١٢م، ص ٦٦.

الجهل الفكري ليتعرّف إلى الله تعالى، ويتعلم من الوحي كيف يقوم بحقه عليه، ويدخل نفسه في سلك طاعته وعبادته مثلما أراد وشرع.

والإيمان أيضاً يحصل نتيجة استشعار الإنسان مسؤوليته تجاه نفسه، التي إذا عرفت الله سبحانه، والتزمت بعبادته، وانتهت عمّا يغضبه، أمنت عقابه الشديد، وظفرت بجزائه العظيم في نعيم جنانه. وأمّا عبادة الله التي هي غاية الخضوع الطوعي لله مع حبه فيها يمارس المؤمن مسؤولية تحمّل عناء التكليف بها، والرغبة في أدائها بصدق وإخلاص؛ لينال رضا الله وأجره العظيم، ويتجنب سخطه وتبعات من تركها أو تهاون فيها.

فالعبادة إذن تأتي تنفيذاً لمقتضيات الإيمان بالله، الذي يكون بعد قيام الإنسان بالخطوة الأولى على طريق الاستخلاف، وهي ممارسة المسؤولية الحاسمة؛ باختيار التعرّف إلى الله، والإيمان به، وعبادته مثلما شرع، والسير على نهجه مدى الحياة. والإنسان يمارس المسؤولية في إنشاء الأعمال التكليفية ابتداءً؛ لقول رسول الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات ..."،^{٢٧} وفي أدائها بإتقان، ثم إنهاؤها على أحسن حال.

وتجدر الإشارة إلى أن كل أعمال الآدميين على الأرض تُحقّق المقصد الاستخلافي، من حيث إنها ممارسة -بوجه من الوجوه- لمسؤولية حرية الفعل، وتحمل نتائج اختياره ومعاونة أدائه، وما يترتب عليه من تنعم أو إيلاء دنيا وأخرى.

فإذا أيقن المؤمن بصدق وعد الله للطائعين بالجنة، ووعيده للعصاة بالجحيم؛ فإنه يتحفز لفعل أي أمر إلهي، واجتناب أي نهي، فيسترخص كل غالٍ، ويتحمّل كل مشقة ومعاونة، ويكابد كل ما يعترض طريقه من صعاب ومتاعب.

ومن هنا تبيّن قيمة المسؤولية التي تنشأ في النفس ضمن إطار الاستخلاف الإيماني، مقارنةً بغيره من أنواع الاستخلاف الأخرى، وهو ما يؤثّر في الأفعال العمرانية التي يقوم بها المسلمون الصادقون؛ فتكون صلاحاً وبناءً ونماءً في مختلف ميادين الحياة، ورخاءً

^{٢٧} البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، ج ١، كتاب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، باب: بدء الوحي، حديث رقم ١. وتتمّة الحديث: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه". وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة بقوله: قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية..." حديث رقم ١٩٠٧.

وإحساناً وإسعاداً لكل أفراد المجتمع المسلم، ونشراً للهداية والعدل والرحمة والأخلاق الحميدة في العالمين.

٢. الحضارة بوصفها ممارسة استخلافية:

لا تقتصر الحضارة فقط على الإنجازات المادية التي تمثل المستوى الفكري والمهاري للأمة التي أسهمت في بنائها، وإنما هي أكثر من ذلك تنفيذ -بوعي أو من دونه- لمهمة الاستخلاف على الأرض، التي نشأت عن إرادة جماعية، وفهم معين لدور الإنسان في الوجود، وتأكدت وترسخت في النفوس خلال السنين والحقب، فأفرزت معارف وعلومًا وفنونًا وقيمًا وعاداتٍ وأخلاقًا، تمثل مجموعها دلالة خاصة لأمانة الاستخلاف، وممارسة كاملة لها.

ومثلما تخضع لتأثير الأشخاص فيها، فإنهم يخضعون أيضاً لتأثيراتها فيهم، ولا سيما الصغار الذين يستوعبون إحياءاتها بعفوية، وتنساب قيمها وأخلاقها في نفوسهم، وتنطبع فيها على الدوام. لذلك يعد بناء الأجيال وإعدادها لحمل الأمانات والنهوض بالمسؤوليات العمرانية، أهم إنجازات الأديان والحضارات بلا منازع؛ فها هم أنبياء الله يحرصون على صلاح ذرياتهم بحيث تسير على نهجهم من بعدهم؛ اقتداءً بإبراهيم عليه السلام الذي أوصى بنيه بالحفاظ على ملة الإسلام ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١٣٢) أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قلوا نعبد آلهاك وآله آباؤك إبراهيم وإسماعيل وإسحق آلها وحده ونحن لله ومسلمون^(١٣٣) (البقرة: ١٣٢-١٣٣).

ولهذا دخلت مهمة تربية الأجيال في صلب بعض تعريفات الحضارة، مثلما نجد عند مالك بن نبي الذي يرى أنها "توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفرادها، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه."^{٢٨} فاستخلاف أجيال صالحة قادرة على الاستمرار في أداء المهام العمرانية للأمة، أو الحفاظ على روح

^{٢٨} ابن نبي، مالك. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، بيروت: دار الفكر، ط ٥، ٢٠٠٥م، ص ٥٠.

حضارتها، بل إصلاح ما فسد من رؤيتها الاستخلافية، والحيلولة دون اهتزاز أساسها في نفوسهم؛ يعد من أهم مسؤوليات الاستخلاف على الأرض؛ إذ أساس العمران قائم بالنفوس، فإذا لحقه تبدل وتغير، تغيرت تبعاً له الأوضاع العامة، واضطربت مسيرة الأمة، وتراجع عطاؤها الحضاري وفق سنن الله الغالبة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ وَيُغَيِّرُ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَرَّامًا نَقُفُّهُمْ فَفَقَسُوا فِيهَا فَنَنْفِقُ عَلَيْهَا الْقَوْلَ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء: ١٦).

فإن الله تعالى استخلف الإنسان في نفسه ودينه إلى جانب استخلافه على الأرض، ليبدأ بإصلاح نفسه بالدين، وهو يُعدها لخوض غمار الإصلاح الحضاري. وإعداد النفس للقيام بالواجبات الإيمانية يركز على إحياء حس المسؤولية فيها وتنميتها، عن طريق التربية والتعليم، وممارسة الدين؛ اعتقاداً، وعبادات، وأخلاقاً، لمن بلغتهم الرسالات السماوية، أو اعتماداً على الفطرة والعقل وحدهما، والتفاعل النفسي مع تحديات الواقع. وفي هذا الصدد، يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (١٨٨٩م-١٩٧٥م): "إن التفسير الوحيد الذي يشرح لنا تماماً فكرة النشوء الحضاري، تفسير نفسي النزعة، قائم على مفهوم التحدي والاستجابة: تحدّ من الطبيعة والظروف البيئية والاجتماعية الصعبة، واستجابة ناجحة من طرف الإنسان؛ أي رد التحدي الخارجي بالتحدي البشري النفسي، على هذه العوارض في طريق الانطلاق الحضاري."^{٢٩}

وما دام الاستخلاف الإنساني ممارسة للمسؤولية العمرانية وجميع الواجبات المتفرعة عنها، فإن الأمم لا تنفك عن بلورة مدلولات خاصة بها بمعنى المسؤولية، تتحرك بها في إقامة حضارتها، وتدل طبيعة تمدنها في الواقع على مدى تقديرها لقيمة المسؤولية، فكلما وجدت لديها إنجازات عمرانية راقية افترض معها وجود حس مرتفع للمسؤولية لدى أفرادها. فإذا تشبعت النفس بقيمة المسؤولية سهّل عليها اكتساب أي صفة حميدة أو

^{٢٩} انظر مقال:

- "فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي"، مجلة دعوة الحق، عدد ٤٦، موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الإلكتروني، المغرب:

خلق رفيع، فعدت متصفة بحُب العمل وإتقانه، والوفاء بالالتزامات والعهود والعقود، والتضحية بالوقت والجهد والمال لخدمة الوطن والمصلحة العامة، فضلاً عن اتصافها ببغض الظلم، والغش، والكذب، والزور، والقبائح كلها.

وفي حال نهوض الأمة بمسؤولياتها التربوية الإصلاحية، داخل الوطن الإسلامي وخارجه، فإنها تصبح أهلاً لاستحقاق الاستخلاف الرسالي على الأرض بين الأمم الأخرى، فتقيم حضارة الإيمان والعقل، والعدل والإحسان، وسعادة الدنيا والآخرة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور: ٥٥).

وأما إذا تراخت الأمة في تحمُّل مسؤولية الهداية والإصلاح لنفسها وغيرها، فإن الأزمات والنكبات تتوالى عليها، وتلاشى قوتها، وتختل أوضاعها، حتى تعود من جديد لحمل أمانة الاستخلاف الرسالي الذي هو قدرها إلى يوم الدين.

خاتمة:

هدف البحث إلى إبراز إمكانية الانطلاق من مهمة الاستخلاف على الأرض بوصفها المقصد الأساس الذي تنفرع عنه جميع المقاصد الإلهية الأخرى؛ سواء أكانت إنسانية عامة أم إسلامية خاصة، وبيان مدى استيعابه لغيره من المقاصد الإسلامية القرآنية والشرعية والحضارية. وقد انتهى البحث إلى ترجيح أن الاستخلاف بالمعنى العام يحتمل معنى النيابة عن الله في حدود ضيقة، تمنح فيها الإنسان حرية الاختيار، التي يكون بها مسؤولاً - حال المثول بين يدي الله تعالى - عن إرادته ومعتقداته (إيماناً، أو كفراً)، وعن سلوكه؛ صلاحاً، وفساداً.

والاستخلاف بالمعنى الخاص هو تكليف واختبار للفئة المؤمنة، إذا تهيأت لها الظروف المواتية، للاضطلاع بمهام الريادة والقيادة لغيرها من الأمم الأخرى. فالمقصد الأول لله من خلق الإنسان كان واضحاً حين أخبر الملائكة أنه سيستخلفه على الأرض،

وأنة سيكون من أفعاله الإفساد فيها، وسفك الدماء، التي هي نتيجة لما يتصف به من الحرية والمسؤولية، وأن هاتين الصفتين (الحرية، والمسؤولية) هما اللتان تتيحان للإنسان حمل الأمانة التي استقلتها السماوات والأرض والجبال.

وقد خلص البحث إلى أن مقصد استخلاف الإنسان على الأرض هو أساس كل مقصد يأتي بعده، وأنه لا يمكن أن يخرج عن إطاره، أو يختلف عنه في قليل أو كثير، لكنه سيكون بالضرورة بياناً وتفصيلاً لما يختزله مفهوم "الاستخلاف" من معاني ومسؤوليات وغايات مُبَيَّنَّة وشارحة لحقائقه ووكلياته وجزئياته. فالإيمان الذي يعد مقصداً قرآنياً عاماً يمثل ممارسة استخلافية تأسيسية لكثير من التصورات الاعتقادية والفكرية وأفعال القلب والجوارح التي دعا إليها القرآن الكريم، وصارت من مقاصده المعلومة، مثل: توحيد الله، والخوف منه، ورجاؤه، والتقوى، والتوبة، والصدقة، والصلاة، والصوم، والحج.

وكل هذه المقاصد وأمثالها تعد امتداداً لمقصد الاستخلاف، وتطبيقاً سلوكياً له؛ فبوساطتها، وعن طريق الامثال لها وتمثلها في الفكر والسلوك، يترسّخ مقصد أساسي واحد هو المسؤولية الاستخلافية التي تتخذ صوراً عدّة؛ سواء كانت معتقدات قلبية، أو التزامات سلوكية، أو مزيجاً بينهما.

ويرى الباحث أن استخلاف الله الإنسان على الأرض يعد أيضاً استخلافاً لمن بلغه الوحي على شريعته، يؤمن بها، ويتفقه فيها، ويُطبّق أحكامها في مجالات حياته المختلفة. وعلى هذا، فإن جميع مقاصد الشريعة العامة والجزئية لا يمكن إلا أن تكون موصولة بمقصد الاستخلاف، ومؤكدة إياه في واقع التدين؛ اعتقاداً، وعبادةً، ومعاملاتٍ.

وبوجه عام، فإن الإنسان يضطلع بالمهمة العمرانية، في إطار استخلاف الله إياه على الأرض، الذي قد يمارسه اعتماداً على مجرد عقله، أو استناداً إلى تعاليم الوحي وفقه مقاصده، فيكون سعيه فيها صلاحاً ورخاءً وأمناً، أو فساداً وشقاءً واضطراباً، فيجني ثمار نهجه العاجلة فوق الأرض، ويتعرض لحساب الله الآجل في الدار الآخرة.

ختاماً، فإن الاستخلاف الإيماني لا بُدَّ أن يكون حافزاً قوياً للمسلم إلى إعمار الأرض؛ بتنمية الخير والصلاح والهداية بين الناس، والحد من الشر وأسباب الفساد،

وذلك حين يسعى إلى العمل مُستشعراً عِظم الأمانة الاستخلافية، وموقناً أن صلاح الإنسان وفلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة يكون بإدراك ثقلها وحسابها الشديد، ومختلف أبعادها في الوجود الإنساني. وهكذا عرض البحث مفهوماً واسعاً للاستخلاف على الأرض، شمل مطلق الإنسان على اختلاف نهجه في الحياة، فضلاً عن استعراض الملامح العامة لمواءمة مبدأ الاستخلاف بحيث يكون مقصداً أساسياً شاملاً المقاصد العامة لكل من: القرآن الكريم، والشرعية، والحضارة الإنسانية، والحضارة الإسلامية؛ ما يفتح الباب واسعاً أمام البحث والتمحيص وتقصي مدى قدرة الاستخلاف حقاً على تأطير جميع المقاصد الجزئية للقرآن الكريم، والشرعية، والحضارة، وغير ذلك من المجالات الأخرى.

وأما أهم ما يمكن استخلاصه من هذا البحث فهو استنهاض همم العلماء والباحثين في مجال الدراسات المقاصدية، لاستفراغ الجهد في التوصل إلى مقصد واحد عام جامع للمقاصد الإسلامية كلها؛ سواء كان هو الاستخلاف نفسه، أو غيره من المقاصد؛ وذلك سعياً للخروج من حالة التشتت الفكري والمنهجي التي تمنع حسن استثمار النهج المقاصدي في تطوير المعرفة الإسلامية وتجديدها، وتفعيل توظيفها في التأطير والتحفيز إلى نهضة فكرية حضارية رشيدة معاصرة.